علي ابرهيم باشا

تفضل جلالة مليك البلاد فأنعم برتبة الباشوية السامية على عميد كلية الطب وامير الجراحة المصرية الدكتور علي ابرهيم فتسابقت الدوائر العلمية والطبية في العاصمة المصرية الى الاحتفال بعلي باشا اعترافاً منها بما لهُ من يدٍ عليها وما لتأييدهِ في نجاحها من اثر. وقد اخترنا لهذه الصفحات مقالة للكاتب البليغ المبدع الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري وصف فيها علي باشا وصفاً هو آية في دقة التصوير وجانباً من خطبة للدكتور نجيب بك محفوظ ويليهما ابيات مختارة من قصيدتين لشوقي ومطران

من مقالة الاستاذ البشري

رقيق الجسم ادنى الى ان يكون هزيله ، اسمر اللون ، مستطيل الوجه ، غليظ الشفتين من غير قبح ، واضح الثنايا ، لعينيه بريق وفيهما جمال ، متفخم اللفظ ، تاؤه بين التاء والطاء وزايهُ بين الزاي والظاء ، وادع النفس هادىء السعي خفيف الروح ، ظريف المجلس ، لا يجد العنف الى عواطفهِ سبيلاً ، يقصد في طربهِ ، كما يقصد في غضبهِ

فيه حد الفتى وحلم المزكّى ... وحجى الكهل وارتياحُ الغلامِ

ولعل هذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر في نجاحه في عمله المرعب الدقيق وشأنه كشأن جميع النوابغ في الدنيا ، ليس لهم من مظاهرهم ما يدلُّ على أخطارهم إلا أنك لا تستطيع ألا تلحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس أصابع سائر الناس ، فانها تسترعيك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها ، على انهُ إذا تحدث رأيتهُ يستعين دائماً بسبابته ووسطاه فما تزالان كالمقص في انفراج والتئام إلى ان يفرغ من حديثه ، حتى أنك لتعرفه من اصابعه كما تعرفه من وجهه ، ولو قدر لمصور أن يرسم أصابعهُ وحدها لدلت عليهِ الى غاية

لقد تسنم غارب المجد ، وبلغ من الشهرة ما تتقطع دونه علائق الآمال ، وهو مع هذا لا يحفل قط بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون ، ولا تحسبهُ يطمع في اكثر ان يعيش في غمر الناس كسائر الناس

يا له من رجل ، لقد تكون في مجلسهِ مع غيرك ، ولقد تكون معهُ وحدك وانت مفيض أسبابهِ ومطلع سره ، فتعرض ذكرى فلان الجراح فيقول لك (بالك فلان ده ، ويومئ إليك بأصبعهِ سالفة الذكر ، ده والله جراح ماله مثيل ده شيء من فوق التصور ، لو كان للجدع ده بخت مكنش حد زيه في الدنيا) ، يقول هذا في رضا وصدق نفس وراحة

أعصاب والواقع إنني لا أدري أكان هذا كله قد جاءه من طبيعة صفّاها الله من كل ما يتداخل أرباب الفنون ، أم أنهُ تمكن من نفسهِ واستوثق من انهُ لم يتعلق احد بغباره مهما افتن لاخوانهِ الجراحين في ألوان الشهادات

ثم هو شديد العطف على اخوانهِ الاطباء عامة ، عظيم العون لجماعتهم ، رطب اللسان فيهم ومن أظرف نوادره أن رجلاً من كبار الأغنياء قدم اليهِ يشكو علة لا تتصل بالجراحة ، فقال له ، يا عم لا شأن لي بمرضك فاذهب الى الدكتور فلان أو الدكتور فلان فهم الذين يحسنون تشخيص علتك ويقدرون على علاجك فقال الرجل ، بل انما قصدت اليك أنت ولست أرضى أحداً يداويني غيرك ، وجئت معي بكذا وكذا من الاموال فخذ مني على أن تعالجني ما تشاء ، فقال لهُ الدكتور ، وأنت إذا أعطيتني ما تشاء فلن اداوي علتك لانها ليست من عملي ولا تتصل بفني إنما أنا رجل جراح ، فألح الرجل وتضرع ، فلما اعياهُ امره قال لهُ « اسمع يا عم لو تلف (كالون) بيتك هل تجيء لهُ بنجار أو بكواليني » فقال لهُ بل بالكواليني فقال لهُ مرضك هذا أنا لا أعرف فيهِ . فقال لهُ الرجل ماذا تصنع إذاً فقال لهُ أنا أفتح لك كرشك أكسر رجلك أقطع رقبتك ، وهذا الذي اعرفهُ فانصرف الرجل مقتنعاً راضياً

ولست أحاول أن أصف لك قدر الدكتور علي ابرهيم ولا نبوغ مبضعه فحسبهُ ان أسلم الناس اجماعهم لهُ بأنهُ مفخرة من مفاخر هذه البلاد ، ولقد قلت لاحد الاطباء يوماً ، صف لي براعة الدكتور علي ابرهيم فقال لي ، أعرفك أنك تحب الغناء وتهوى الموسيقى ، ولو كان لك عرق في فن الجراحة وقدر لك ان تشهد عملياته لوجدت لانامله من الطرب مالا تجده لانامل العقاد وهي منطلقة في أوتار قانونه الحنان الطروب

على أن نبوغه لم ينته الى حذق الطب والمهارة والبراعة في فن الجراحة ، بل أن لهُ في كثير من العمليات ابتكارات من ذلك النوع الذي يؤثر ويدرس ويحدث في نظريات الفن إحداثاً وأنهم ليروون عنهُ جهاداً عظيماً في متابعة الحركة الطبية في العالم فهو كثير القراءة والنظر فيما يخرج في هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل حتى اذا وقعت لهُ نظرية حديثة فاستوت في ذهنهِ أقدم على تطبيقها بنفسه فكان نجاحهُ دائماً ، كعزمهِ قويًّا جليلاً

وبعد فان جهلاً أن يظن امرؤ للعبقريات في العالم أسباباً معينة معروفة فما كان هؤلاء العبقريون أصح من غيرهم أبداناً ولا اكثر قراءة ولا اعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر ولا اطلب ممن عداهم لتلك الاسباب المفروضة للبراعة والتبريز ، فلقد كان البحتري شاعراً في سن العشرين كما كان شاعراً في سن السبعين ، وكان ابن المقفع

كاتباً وهو ابن الثماني عشرة كما كان كاتباً حين قبض وهو في الثامنة والعشرين وكان روفاييل مصوراً رائعاً يوم جالت يده بالنقش كما كان مصوراً في غاية عمره ، وكذلك كان علي ابرهيم جراحاً اول منجمه كما هو جراح اليوم ، انما هي مواهب من الله تعالى يتخير لها من يشاء من عباده لم يتكشف العالم عن كنهها ولا سببها الى اليوم

وانك لتجد الطبيب يصيب دائماً في تشخيص العلة الا قليلاً وانك لتجد الآخر يخطىء دائماً في تشخيصها ، ووسائلهما في الفن واحدة ، وحظهما من العقل والعلم وسائر الاسباب متكافئ ، ذلك ان هنالك حسًّا دقيقاً غير تلك الاحساس المعروفة يكاد يتفطن به من آثر الله به الى معاناوي الغيب فيقع الشيء في نفسه يحسبهُ الهاماً لانهُ لا يعرف له علة ولا يحيط منهُ بسبب ، ومن هؤلاء الذين اصطفعهم الله لهذه الموهبة الدكتور علي باشا ابرهيم

وسبحان من يقرن قضاءه باللطف فانه في الوقت الذي بث فيه الترام في شوارع البلد ، وأزقته يدك الرؤوس ، ويحصد النفوس ، وأطلقت آلاف الاتوموبيلات واللوريات والموتوسيكلات ، تقد المتون ، وتبعج البطون ، وتأبى الشفقة على سائقها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحشو معاطسهم بالكوكايين ، والهاروين ، وغيرهما من البلاء المبين حتى يغيبوا عن مشاهدة ما تنسف سياراتهم من الهام ، وما تفري من الاجسام ، وما ترسل على الناس من الموت الزؤام ، ولا تنسَ ، جعل الله لك في كل خطوة الف سلامة ، تلك السيارات العاصفة ، ما لها من دون الله كاشفة ، وتيك التي يتخذها ابناء الذوات ومن انحدرت اليهم النعمة ، وهي تنطلق انطلاق السهام ، في اجساد الانام ، كأن مهمتها في هذا البلد صنع أرامل وتخريج ايتام — سبحان الذي حين يبتلي البلد بكل هذا يرسل فيهم الدكتور علي ابرهيم ، يجمع من اعضاء الناس ما تفرّق ، ويرم من احشائهم ما تخرّق ، ويضم من اشلائهم ما تمزّق ، حتى اوشك ان يقطع على عزريل رزقه من فنه الوبيل

وجل من تعالى على النقص وتنزه عن العيب ، فان جراح الشرق كله لا يملك مستشفى يليق بجلالة محله ، ولا بآلاف المجاريح الذين يطلبون مستشفاه من كل مكان ، فقد سلطت عليه شهوة اقتناء السجاجيد ، وألوان الطرف واحراز ما ابدعت يد كل فنان ، وما افتن فيه كل صنع حسان ، وما كل ما رثت فيه العثور ونصل عليه لون الزمان ، من دمى وتماثيل وتصاوير وتهاويل ، ونمارق ووسائد ، ومعاضد وقلائد ، وخشب منجورة . وأحجار محفورة ، ومزاليج ابواب ، وسروج دواب ، وشرفات دور ، وشواهد قبور ، وضباب مصبرة وجرار مكسرة ولو نفض عنه بعض ما يحرزه من ذلك لابتنى مستشفى يليق حقًّا بشيخ الجراحين ، على اننا نترك الكلمة في هذا للمجلس الحسبي

من خطبة الدكتور نجيب محفوظ

لما القيت مقاليد الكلية منذ عامين تقريباً الى سعادة علي باشا كانت قد قطعت شوطاً عظيماً من الرقي ونالت من الشهرة العالمية قسطاً غير قليل فلا عجب اذا كانت الانظار في مصر وخارجها قد أخذت منذ ذلك الحين ترقب باهتمام زائد ذلك المصري الفذ الذي اخذ على عاتقه امام العالم اجمع لاول مرة بعد اربعين سنة مهمة من اشق المهمات واكثرها ارهاقاً للجسم والعقل وهي مهمة حفظ المستوى الذي بلغتهُ الكلية والسير بها الى الامام. ويجدر بي في هذا اليوم السعيد ان استعرض بعضاً من الاصلاحات التي تمت منذ تولى ادارتها الى اليوم. نعم — لم يكن علي باشا غريباً عن الاصلاحات التي تمت قبل ذلك بل كلنا نقرُّ بانهُ كرئيس لقسم الجراحة ونائب للعميد لم يكن فقط الروح الموحي بل والساعد المنفذ لما تمَّ فيها من اصلاح ولكننا اذا تأملنا مدى الاصلاح الذي تمَّ اخذنا العجب من ضخامته على قصر المدة التي تمَّ فيها فقد شملت هذه الاصلاحات كل فرع من فروع العمل في المستشفى والمدرسة. ففي المدرسة اقيمت مبانٍ شتى أدت الى زوال الشكاوي المرة التي كانت تؤلم المرضى والاطباء على حد سواء فأنشئ قسم كبير لمعالجة تدرن العظام مع غرفتين للابحاث العلمية ووسعت غرف العيادة الخارجية توسيعاً كبيراً وأنشئت مبانٍ جديدة فيها لامراض الاطفال، ولقسم الزهري والامراض الجلدية وانشيء قسم جديد لعزل الاطفال فوق الملجأ وأُلحق به معمل خاص للمباحث كما انشئت معامل جديدة في كل قسم من أقسام المستشفى وزيد عدد أسرة قسم امراض النساء ثلاثين سريراً وأنشيء له متحف خاص وفوق كل هذا صار الماء الجاري موجوداً في كل غرف المستشفى. اما في المدرسة فاقيمت مبان جعلت من الممكن انشاء ثلاثة أقسام جديدة للطب الشرعي والطب الوقائي والباثولوجيا الاكلينيكية وقد أظهر علي باشا بعد نظراً مشكوراً في امور اربعة

(اولاً) وضعه نظاماً حكيماً يتيسر به ايجاد مصري لائق لكلّ وظيفة جديدة تخلو وذلك بتعيينه عدداً من الشباب الناهض في وظائف متدرجة كمساعدين للاساتذة يتدربون تحت عنايتهم (وثانياً) الاتفاق الذي عقده مع كلية الجراحين الملكية والذي من شأنه اعفاء اعضاء البعثات من امتحان المعادلة موفراً عليهم ذلك وقتاً طويلاً كانوا يصرفونهُ هباءً منثوراً (وثالثاً) نجاحهُ في اقناعه اولي الامر في انجلترا بتعيين خريجي البعثات في وظائف التدريس في العلوم التي تخرجوا فيها تحت ارشاد أساتذتهم حتى يتم بذلك تدريبهم علماً وعملاً (ورابعاً) التعديلات التي ادخلها على مشروع المستشفى الجديد لجعله يتمشى مع الرقي العظيم الذي ينتظر الكلية. وتقضي هذه التعديلات بزيادة عدد الاسرة ٥٠٠ سرير ومكان لايواء ٥٠٠ ممرضة وانشاء معهد كبير للمباحث العلمية والتجريبية ملحقاً بالمستشفى واقامة مبانٍ خاصة لاقسام الطب الوقائي والمادة الطبية والبيولوجيا والمتحف

من قصيدة شوقي

وضئيل من أساة الحي لم يمنَ باللحم والشحم اختزانا
ضامر في سعفة تحسبهُ نضو صحراء ارتدى الشمس دهانا
أو طبيباً آياً من « طيبة » لم تزل تندى يداه زعفرانا
تنكر الارض عليهِ جسمهُ وإسمهُ أعظم منها دورانا
نال عرش الطب من « أمحوتب » وتلقى من يديهِ الصولجانا
يا لأمحوتب من مستألِهٍ لم يلد الأحواريًّا هجانا
خاشعاً لله لم يزهَ ولم يرهق النفس اغتراراً وافتتانا
يلمس القدرة لمساً كلما قلب الموت وجس الحيوانا
لو يُرَى الله بمصباح لما كان إلا العلم — جلّ الله شانا

في خلال لفتت زهر الربى وسجايا أنست الشرب الدنانا
لو اتاهُ موجعاً حاسدهُ سلّ من جنب الحسود السرطانا

لا عدمنا « للسيوطي » يداً خلقت للفتق والرتق بنانا
تصرف المشرط للبرء كما صرف الريح الى النصر السنانا
مدها كالأجل المبسوط في طلب البرء اجتهاداً وافتنانا
تجد الفولاذ فيها محسناً أخذ الرفق عليها والليانا
يد « ابراهيم » لو جئت لها بذبيح الطير عاد الطيرانا
لم تخط للناس يوماً كفناً انما خاطت بقاء وكيانا
ولقد يؤسى ذوو الجرحى بها من جراح الدهر أو يشفي الحزانى
نبغ الجيل على مشرطها في كفاح الموت ضرباً وطعانا
لو أتت قبل نضوج الطب ما وَجَد التنويمُ عوناً فاستعانا

من قصيدة خليل مطران

كم مدنف ابرأتهُ من سقمهِ فكفيتهُ التعذيب والتأريقا
وشفيت قبل الجسم علة روحهُ باللفظ عذباً والعلاج رفيقا
تصف الدواء لهُ على قدَرٍ فلا تخليطَ في صفة ولا تلفيقا
أو تدرك الداء الدنيَّ بنصلةٍ تنضو الحجابَ ولا تضلُّ طريقا
تندى وتسطع في يديك مهارةً كالماء ليناً والرجاء بريقا
وتطيع فكراً صارماً كشباتها وتطيع قلباً كالنسيم رقيقا
عزم بهِ تنهى الصروف فتنتهي ولربما عُقتَ الحمام فعيقا